(١)

الإنسان والزمان

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً ﴾ (الإسراء: ١١ ـ ١٢).

نحن أمام آيتين من سورة الإسراء، أولاهما وصف للإنسان، والثانية وصف لحركة الكون وعلاقة الإنسان بها. ولكي ندرك موقع الآيتين سنعود قليلاً إلى الموضوعات الثلاثة التي سبقتها في السورة: الافتتاح بقصة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وقصة بني إسرائيل، ووصف القرآن الكريم، وأنه يهدي للتي هي أقوم، وهو للمؤمنين بشارة، ولغيرهم نذير. أما الموضوعات بعدها فهي: المسئولية الفردية والجماعية، ووصايا سورة الإسراء. وهي أولَ تفصيل للشريعة نزل به الوحي على المصطفى عليه الصلاة والسلام في مكة "وما جاء في هذه الآيات مقصود به تعليم المسلمين، ولذلك اختلف أسلوبه عن أسلوب نظيره في سورة الأنعام الذي وُجِّه فيه الخطاب إلى المشركين لتوقيفهم على قواعد ضلالتهم"[(١)].

أمامنا آيتان أولاهما إنسانية، والثانية كونية، فما العلاقة بينهما؟ وما العلاقة بسياق السورة؟

يقول الله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً ﴾

وسياق قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً ﴾، يدل على شيوع العجلة في الإنسان، مثل قوله تعالى:

﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً ﴾

(الكهف: ٥٤). ومن الممكن أن يكون الجدال بالتي هي أحسن، وقد يكون

---

(١) التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور، ١٥ – ١٦.

غير ذلك. ونماذج النهجين مبثوثة في القرآن وفي الحياة على امتدادها المكاني والزماني.

والعَجَلة في ذاتها مدحًا ولا ذمًا. وتبدو مكانتها بملابساتها. ونعود إلى القرآن الكريم نلتمس فيه مواقع الآيات التي جاءت فيها هذه المادة:

لقد وصف الله الدنيا بأنها العاجلة، عندما قارنها بالآخرة، فقال تعالى:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ (الإسراء: ١٨).

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ (القيامة: ٢٠، ٢١).

وأحيانًا نحسّ في التعجيل خيرًا، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٠).

وكان هذا عن صلح الحديبية، وهو أول اعتراف من قريش بقوة المسلمين، أدى إلى عقد معاهدة، كان من ورائها انتشار عريض للإسلام في الجزيرة العربية، وتتابعت من بعده الانتصارات في أكثر من جبهة: جبهة اليهود الشمالية في خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء، في العام السابع للهجرة، ثم فتح مكة في العام الثامن.

ولكن أكثر ما تأتي فيه مادة "عَجَل" في القرآن هو الدعوة إلى الأناة والتريث.. ولو كان الأمر خيرًا:

ففي تلقّي الوحي يقول تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ:

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (طه: ١١٤).

ويقول تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة:١٦ :١٩).

ونعود إلى الآية الكريمة:

﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولاً ﴾.

أمر مقبول مرغوب فيه أن يدعو الإنسان بالخير. وكلنا يحب الخير. والله تعالى وصف ما جاء به القرآن بأنه الخير في قوله:

-﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (النحل: ٣٠)

وإلى فعل الخير دعانا الله في قوله:

-﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (الحج: ٧٧)

أما أن يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير، فهذا الذي يستوقف النظر، ويحتاج إلى تأمل. وللمفسرين أقوال في هذه الآية:

الأول: مأخوذ من مواقف بعض المشركين عندما رفضوا الإسلام عنادًا واستكبارًا. وهو الخير الذي أنزله الله عليهم، ورضوا بعبادة الأوثان، وذهبوا إلى أبعد من هذا في التحدي، فقالوا كما يقص علينا القرآن: ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ (الأنفال: ٣٢) هذا ما كان من أمر النضر بن الحارث، واستعجاله العذاب. وكان خيرًا له أن يقول: "اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه". هذا أسلوب في استعجال الشر والعذاب، يرد عليه القرآن الكريم، موجهًا الخطاب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٣).

الثاني: إن الإنسان في وقت الضجر والضيق قد يدعو على نفسه أو أهله أو ولده. ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك.

ويروي الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية عن هذا المعنى: أن النبي ﷺ دفع إلى سودة بنت زمعة (أم المؤمنين رضي الله عنها) أسيرًا، فأقبل يئن بالليل. فقالت له: مالك تئن ؟ فشكى ألم القيد، فأرخت له من وثاقه. فلما نامت أخرج يده وهرب.

فلما أصبح النبي ﷺ دعا به، فأعلم بشأنه. فقال ﷺ: "اللهم اقطع يدها"، فرفعت سودة رضي الله عنها يدها، تتوقع أن يقطع الله يدها. فقال النبي ﷺ: "إني سألت الله أن يجعل دعائي على من لا يستحق عذابًا من أهلي رحمة: لأني بشر أغضب كما تغضبون، فلترد سودة يدها"[1].

الثالث: أن الإنسان قد يبالغ في الدعاء طلبًا لشيء يعتقد أن فيه خيره، مع أن ذلك الشيء منبعُ شره وضرره. وهو يقدِم على ذلك لكونه عجولاً مغترًا بظواهر الأمور، غير متفحص عن حقائقها وأسرارها.

وكما رأيت علاقة هذه الآية بمشركي مكة واستعجالهم العذاب، ترى علاقتها بما جاء في قصة بني إسرائيل وهي في صدر سورة الإسراء.. فلقد أكرمهم الله برسول وكتاب، وأجرى على يديه من المعجزات ما رأوه جميعًا: شق لهم في البحر طريقًا يابسًا، وفجَّر لهم الماء من الصخر، ودعا ربه فأنزل عليهم المنّ والسلوى، وظلل عليهم الغمام.. فماذا كان من أمرهم في سيناء؟ ارتدوا إلى عبادة العجل قائلين لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٨) فهذا أسلوب في استعجال الشر ـ وهو هنا الارتداد إلى عبادة الأوثان ـ وترك الخير وقد مارسوه، وهو عبادة الله الواحد القهار.

هذا الاستعجال، والرغبة في اختصار الزمن، للوصول إلى هدف براق تختفي في وهجه الحقائق وتعمى الأبصار، ليس زمنًا حسابيًا دقيقًا منتظمًا، وإنما هو زمن نفسي. زمن إحساس. يطول به الزمن أو يقصر حسب إحساسك أنت بهذا الطول. وتحس به أن عقارب الساعة سريعة أو بطيئة حسب إطمئنانك أو تعجلك. هذا التعجل هو الذي لا تسرع به حركة ولا تبطيء، ولا يعتدل به مسار الكواكب.. وكأننا هنا أمام نوعين من الزمن: الزمن الشعوري المتولد من هدوء أو قلق، من اتزان أو عجلة؛ والزمن الكوني الذي لا يتأثر بإحساس الفرد، وهو الذي تُعبّر عنه الآية التالية وهي قول الله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴾.

(١) التفسير الكبير، ١٩: ١٦٢.

الزمن الكوني:

وهذا الحديث عن الزمن الكوني، وقد جعل الله له آيتين هما الليل والنهار. وفي كل منهما آية كبرى: آية النهار هي الشمس. وآية الليل هي القمر والنجوم.. وبكل هؤلاء جاء القسم في القرآن تكريمًا، ولفتًا إلى ما في كل منهما من عِبرٍ وعلاقة بحياة الإنسان:

أقسم الله تعالى بالليل والنهار في قوله:

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ (الليل: ١ ـ ٢).

وأقسم بالشمس والقمر فقال: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ١ ـ ١٠). فجاء القسم رابطًا بين الجانبين الكوني والإنساني. وهو ما نجده في آيات القسم جميعًا. وقد ذكرنا هذه الآيات مثلاً لغيرها.

كما أقسم بالنجوم فقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴾ (الطارق: ١ ـ ٤).

وترى القسم والارتباط الكوني البشري وثيقًا قريبًا في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (النجم: ١ ـ ٢).

ثم تجد التكريم كل التكريم إذا تابعت القراءة: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ (النجم: ٣ ـ ٧).

فالنجم قد يهوي. ولكن محمدًا عليه الصلاة والسلام صاعد إلى الأفق الأعلى. هناك في التلقي الإلهي، والوحي ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾ أيّ مكان، وأيّ مكانة، وأيّ معرفة وأيّ تكريم؟! ﴿ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴾ (النجم: ١٨).

فحديث القرآن عن الآيات الكونية وثيق الصلة بالوجود الإنساني. والإفادة منها عريضة غير مقيدة.. ولنتأمل قوله تعالى: ﴿ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلاً مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ﴾ كلمة "فضلاً" هنا على إطلاقها تفيد تنوع آفاق الاستفادة. ولنا أن نقول إنها تمثل الجانب الموضوعي في الاستفادة. "ولتعلموا عدد السنين والحساب" تمثل الجانب التنظيمي في الاستفادة. قل إنه الشكل والمحتوى؛ أو التخطيط والإطار من ناحية، ومجالات العمل من ناحية أخرى.

والآية لا تحمل "فصلاً" بين الليل والنهار. فالله جعلهما آيتين لنبتغي فضلاً منه.. ولكل منهما عمل فيه فضل.. وفي القرآن على ذلك دليل، وإن غلب على النهار السعيّ والعمل، وغلَب على الليل العبادةُ والتأمل، دون غفلة عن حماية الأهل والدار. وفي هذا يقول الله مخاطبًا رسوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً ﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلاً ﴾ (المزمل: ١ ـ ٧). ثم يقول تعالى في خواتيم السورة: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ ۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ ﴾ (المزمل: ٢٠)

وقال عليه الصلاة والسلام مادحًا قوة الارتباط بالقرآن تدبرًا، وقوة الارتباط بالمجتمع صيانة ودفاعًا: "عينان لا تصيبهُما النار: عين بكت في جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله.."[(١)]،

وكرَّم الله الليل وهو مظنة الراحة بأن جعل فيه مشاهد باقية الأثر من قصص الأنبياء. فقال في صدر سورة الإسراء ﴿ سُبۡحَـٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلاً مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَـٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ وجعل خروج موسى بقومه ليلاً فقال: ﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ (الدخان: ٢٣) وكذلك كان خروج لوطٍ والمؤمنين معه ليلاً في

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس – الجامع الكبير: ٥٨٣.

قوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ (الحجر: ٦٥).

فالهدف من علاقتنا بالليل والنهار، هو نقل الاعتبار من مستواه النظري إلى آماده العملية، وذلك بالاقتراب المستمر من مصادر المعرفة التي تجذبنا في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾. وما يحمل هذا الاقتراب من وفرة الابتغاء من فضل الله، وتنظيم ذلك ليلاً ونهارًا: عملاً وراحة، تحصيلاً وبذلاً، إنتاجًا واستهلاكًا، استثمارًا وتعميرًا.

ولننظر إلى جوانب من تفصيل هذه الآية:

ما المقصود من ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

أولاً : أن آية الليل وهي الظُلمة، تمحوها آية النهار وهي النور.

ثانيًا: أن آية الليل وهي القمر والنجوم، تمحوها آية النهار وهي الشمس. فهي عند ظهورها تكسف أضواء غيرها.

ثالثًا: تحمل الآية أيضًا تغير منازل القمر. وقد أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يس: ٣٩)

وهذه المنازل ـ علميًا ـ تستمد صورها من موقع كلٍّ من الأرض والقمر بالنسبة إلى الشمس. وهي المصدر الأساسي للنور والضوء في المجموعة الشمسية. فهي الآية المبصرة.

وإن التقاويم التي اتبعتها مختلف الأمم لا تخرج عن النظامين الأساسيين: القمري والشمسي. والإسلام يفيد منهما معًا:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ . (التوبة: ٣٦) ونظام العبادة السنوي في الإسلام مرتبط بالشهور القمرية: صوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. والنظام اليومي مرتبط بالشمس:

هكذا أيام الصوم ولياليه... ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ (البقرة: ١٨٧) فهذه كلها حركة الشمس.

وكذلك في الصلاة ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩).

وجمع الله تعالى الإفادة من الشمس والقمر والنجوم في الحساب في قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٦ـ ٩٧).

فالارتباط بالكون: علمًا وسعيًا وعبادة أصيل في الإسلام. ومن قديم ابتكر آباؤنا الوسائل الدقيقة للحسابات الشمسية والقمرية والنجمية، وأفادوا منها في الدراسات البرية والبحرية، وأقاموا المراصد وصنعوا الأسطرلابات، وغيرها من أجهزة القياس والحساب. وصححوا الأخطاء التي وقع فيها من سبقهم من العلماء. ولا زال التراث الإسلامي الحسابي والفلكي منجمًا فياضًا بالمعرفة، ولا تزال البحوث في مخطوطاته تكشف الجديد مما طواه الزمان، أو سرقه الآخرون ونسبوه إلى أنفسهم، وأخذ أبناء الإسلام في العصور الحديثة في بذل الجهد لرد الفضل إلى أصحابه.

إن الذي يعنينا في مقامنا هذا هو المحرك الأول لهذه النهضة العملاقة. هذا المحرك هو القرآن الكريم. هو هذه العقيدة في بساطتها وعمقها وسموها: الإيمان بالله تبارك وتعالى، وتصديق الرسول عليه الصلاة والسلام. الإيمان بما أنزل الله عليه من القرآن الكريم، وما فيه من دعوة إلى عمارة الكون بالعلم والعمل والإخاء والتعاون. وكما تستطيع أن ترى في الشجرة الطيبة أصلاً يجمع فروعها.. فكذلك الحضارة الإسلامية: أصلها القرآن، ومنه نستمد الرغبة في معرفة المزيد.

(٢)
المسئولية الفردية

﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء: ١٣ ـ ١٥).

هذه آيات ثلاث عن المسئولية الفردية في الإسلام، وارتباط العمل بالجزاء، وثمرة كل من الطاعة والمعصية، وعدل الله ورحمته في إرسال الرسل، ثم محاسبة العباد على هذا الأساس.

وستأتي بعد هذا آيات عن المسئولية الجماعية.

ولنبدأ أولاً بالجانب اللغوي والتاريخي، يقول الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ فما الطائر؟ وما الإلزام؟ ولم كان في العنق؟

الطائر هو الحظ والقَسْم والنصيب، وكان العرب في الجاهلية ـ في لعبهم الميسر ـ يرمون السهام المرقومة على البهيمة التي صبروها (أي رصدوها وأقاموها) لذلك. فكل من وقع سهمه على شيء أخذه، فهو نصيبه، وكانوا يجعلون للسهم ريشًا، ليخف به اختراقه الهواء عند رميه من القوس، فكأنه طائر يطير ليقع على حظه أو نصيبه.

وشمل التعبير اقتسام أي شيء، يقال: اقتسموا الأرض، فكان لفلان كذا. ومنه قول أم العلاء الأنصارية في حديث الهجرة: اقتسم الأنصارُ المهاجرين، فكان لنا عثمان بن مظعون.. أي كان من نصيبهم (التحرير والتنوير ١٠: ٤٦ ـ ٤٧).

كذلك استخدم في زجر الطير، فإن تيامنت استبشروا، وإن تياسرت تشاءموا.

واستخدام الطير أو ريشةٍ من جناحه للدلالة على نصيب الإنسان أو عمله أو حقيقة ذاته، لا يقتصر على الإسلام أو اللغة العربية، وإنما نراه في أكثر من دين

وعقيدة.. وهي مكتوبة ومصوّرة فيما حفظت لنا - كمثال - الآثار المصرية القديمة.

والإلزام عدم المفارقة

والعنق هو الصلة بين الرأس والجسد، وهو محل الزينة، كما هو محل الغل. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ (يس: ٨). فالغل محله الرقبة. والقيد محله اليد والقدم. وإذا كان الغل عريضًا إلى الذقن ارتفع الرأس فلا يستطيع المغلول أن يبصر موقع قدمه وهذا عذاب آخر. وفي موقع آخر من القرن جاء ذكر الغل مرتبطًا باليد كناية عن البخل ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ (المائدة:٦٤).

والوزر هو التبعة والمؤاخذة والثقل. وهو الإثم لتشبيهه بالحمل الثقيل.

أما عن موقع هذه الآيات في سياق السورة، فلقد جاءت قبلها قصة بني إسرائيل، وما كان منهم من إحسان وإساءة، ومن قبل ذلك قصة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. ثم بيّن القرآن الكريم الطريق الأقوم وهو اتباع القرآن الكريم. وعَرَض الزمانين النفسي والكوني.. أو الإنساني والكوني. الأول في تواتراته وعجلة الإنسان في طلب الخير والشر، وهذه العجلة لا تغيّر من حركة الكون ولا تقرّب بعيدًا، أو تُبعد قريبًا، والثاني في استقراره وحركة الشمس والقمر وتتابع الليل والنهار.

وسنرى فيما نستقبل من الآيات كيف عُني القرآن بالمسئولية الجماعية بعد أن خصص هذه الآيات للمسئولية الفردية؟ والاثنتان - الفردية والجماعية - تتحركان في إطار الزمان والمكان.

وإذا كان المكان بطبيعته محدودًا.. إلا أن له اتصالاً بما حوله وتفاعلاته القريبة والبعيدة.

والزمان له مفاهيمه التي رأيت منها اثنين: النفسي والكوني.. وللزمان في الدراسات المعاصرة تقسيمات أخرى، ستبدو علاقاتها بحركة الحياة. ومن أوسع هذه التقسيمات شيوعًا: التقسيم الثلاثي لدراسة التاريخ وهو:

التاريخ الجغرافي: ويقصد به تأثير الظاهرات الواضحة الاستقرار كالأرض والسماء والأنهار والمناخ وتوزيعات اليابس والماء.

والتاريخ الاجتماعي: ويقصد إلى دراسة المؤسسات التي تؤثر تأثيرًا طويلاً في حياة المجتمعات كمؤسسة الأسرة ونظام الحكم والناموس الأخلاقي.

والتاريخ الفردي: وهو جهود الأفراد في حركة التاريخ مهما تكن مواقعهم فيه.. ونحن نعني كثيرًا بهذا التاريخ وحركته مع أن النظرة العميقة تدعو إلى مزيد من العناية بحركة التاريخ في مستوياته الجغرافية والاجتماعية، أو ما يسمى بالظاهرات ذات الاستمرار الطويل.

وفي سورة الإسراء سنرى عناية بالمستوى الاجتماعي والمستوى الفردي، وسنرى لفتًا قويًا إلى العوامل المستمرة التأثير في حياة البشر، وهي الظاهرات الكونية. أي أن القرآن الكريم يعني بالمستويات الثلاثة من ناحية، كما يُعني بالعلاقات المكانية من ناحية أخرى، ففيه الامتدادان الزماني والمكاني معًا، ثم فيه التكامل الموضوعي كما سيبدو عند عرض وصايا سورة الإسراء.

أردت بهذا أن أشير إلى التناسق في عرض السورة وتسلسلها لننتقل بعد هذا إلى دراسة تحليلية للمسئولية الفردية في القرآن الكريم. ونعود إلى قول الله تعالى:

﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾
ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾

والآيات بعد شرح ألفاظها واضحة أمامنا.. ولكن هذه الدراسة لا تقف عند حدود الشرح الداخلي للآيات.. ومن الخير أن نعرض في إيجاز للمنهج الذي سنتبعه بعون من الله في دراسة المسئولية والوصايا معًا.. وهذا المنهج يمكن أن تشبهه ببيت من أربع حجرات تعلوها قاعة كبيرة.

الحجرة الأولى : هي الدراسة الداخلية للآيات وما فيها من بناء لغوي.

الحجرة الثانية: هي الدراسة الخارجية للآيات لنبيّن ترابطها بما حولها.

الحجرة الثالثة: هي الدراسة التاريخية وتبين علاقة هذه الآيات بما نزل قبلها وما نزل بعدها.

الحجرة الرابعة: هي الدراسة المقارنة بين مضمون هذه الآيات ونظائرها في الأديان والعقائد الأخرى.

أما القاعة العلوية فهي مخصصة للمسئولية المستقبلية التي علينا أن نحملها في تطبيق هذه الآيات، وجعلها جزءًا من حياتنا المتطلعة دائمًا إلى غدٍ أفضل، دون أن تنقطع عن جذورها، ولا تتقوقع على نفسها.

وتتغير العناية النسبية بين هذه الحجرات والقاعة العلوية وفق طبيعة الآيات من ناحية، وهدف الدراسة من ناحية أخرى.

ولقد رأينا التكوين الداخلي للآيات، وعلاقتها بما قبلها وما بعدها، وسنجمع فيما نستقبل من القول الدراستين التاريخية والمقارنة، وسنأخذ التاريخية بمعناها الممتد في التاريخ الديني، بدءًا بالأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام.

وتبدأ التوراة بسفر التكوين ويعرض خلق السماوات والأرض ثم خلق الإنسان. وقصة آدم في هذا السفر تبرز فيها الخطيئة الأولى، والممتدة من الأب الأول والأم الأولى إلى الأبناء، وخروج آدم من الجنة، وحياتنا في هذه الأرض، باعتبارها - كما يصورها سفر التكوين - النتيجة المباشرة لهذه الخطيئة الأولى.

اليهودية أبقت القصة كما هي، وأما المسيحية فَحَاوَلَتْ أن تجد لها نهاية أخرى، فجاءت بعقيدة الصلب والفداء، واعتبرت صلب المسيح تكفيرًا عن هذه الخطيئة الأولى.

ولا تبرز هذه العقيدة واضحة في الأناجيل الأربعة، بقدر بروزها في أعمال الرسل، وبخاصة رسائل بولص الرسول.

وقبل أن أتناول الأمر بشيء من التفصيل أود أن أذكر أن الفاتيكان وبتحديد أكثر "المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية" في روما، يصدر مجلة بعدة لغات من بينها العربية، وتهتم كما جاء في صدرها بكل ما يختص بالحوار الإسلامي المسيحي من وجوهه المختلفة من الناحية التاريخية إلى الحاضرة، ومن النظرية إلى التطبيقية.. ويشترك في تحريرها كتاب مسلمون

ومسيحيون، فالحوار ومعرفة ما عند الآخر أو الآخرين، هو من أبرز ظاهرات الفكر الديني المعاصر.

(٣)

بين الخطيئة والمغفرة

في قصة آدم لكل منا نصيب.. هذا أبو البشر الذي ترتبط حياته بحياتنا.

وسنقف في قصة الخلق عند التصور التوراتي والإنجيلي والقرآني، دون أن نتطرق في هذه المرحلة من الدراسة إلى ديانات الشرق الأقصى، وقد أخذ بعضها كالبوذية يجد طريقه إلى أوروبا والعالم الجديد وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي فترات العافية لا يكاد أحد يستعيد هذه القصة إلا في مجال بحث علمي، وأما في أوقات الضيق والألم فقد يسأل نفسه: لماذا جئت إلى هذه الدنيا؟ وهل يترتب على خطأ كان من الأب الأول، أن تدور هذه القصة الإنسانية بكل مآسيها وحروبها؟

وقد يعمق به التفكير ويتسع ليتساءل: وأين عفو الله وعدله ورحمته التي وسعت كل شيء، حين حمّل الأبناء جميعًا خطأ الأب الأول أو خطيئته؟

وأنت إذا رجعت إلى سفر التكوين لن تجد من الله إلا المؤاخذة الشديدة على هذا الخطأ الأول أو الخطيئة الأزلية كما يُطلق عليها أحيانًا، وتقرأ تبادل الاتهام بين آدم وحواء، ويلقون المسئولية على الحيّة بأنها أغرت حواء ثم أغرت حواءُ آدم.. فماذا كان حكم الرب في هذا الأمر، ونصيب كل فرد من هؤلاء الثلاثة؟ فلنقرأ هذه النصوص من الإصحاح الثالث من سفر التكوين: (فقال الرب الإله للحيّة، لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البريّة. على بطنك تسعين، وترابًا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه. وقال للمرأة: تكثيرًا أكثّر أتعاب حبَلكِ.. بالوجع تلدين أولادًا.. وإلى رَجُلِك يكون اشتياقك.. وهو يسود عليك. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكًا وحسكًا (وهو النبات الشوكي) تنبت لك وتأكل عُشب الحقل. بعرق

وجهك تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها، لأنك تراب وإلى تراب تعود) (١٤ ـ ١٨).. وحين تتابع الأعداد التالية تقرأ ما صنعه الرب الإله في آدم "فطردَ الإنسان، وأقام شرقي جنّة عدنٍ الكروبيمَ، ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة" (٢٤) أي أقام حراسًا من الملائكة على أبواب الجنة بعد طرد آدم، ولهيب سيف متقلب. هذه هي الصورة التي ترك بها أو طرد بها آدم من الجنة. أو قل: هي الصورة التي بدأت بها الحياة الإنسانية على الأرض، كما تصورها نصوص سفر التكوين الذي بين أيدينا.

والإنسان حين يلقى في الحياة عنتًا يعود إلى قصة الخلق، فإذا وجد هذا النص أمامه ولم يجده غيره، لا نستطيع أن تلومه إذا أحس الظلم، وأنه يحمل على رأسه ذنب أو خطأ أبٍ أوّل، وتصويرًا لعبء لا يد له فيه، وإنما هو ثمرة مُرّة من قصة مُرّة.

هنا تجد نوعًا من وراثة الخطيئة وانتقالها من جيل إلى جيل، بل عبر الأجيال جميعًا، والأقطار جميعًا.

وجاءت المسيحية، وقبلت العهد القديم، ولكنها أضافت جديدًا رأته قبسًا من النور في نهاية النفق المظلم الطويل، وتقرأ في رسالة بولس إلى أهل رومية "ولكن الله بيّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا" (إصحاح ٥ عدد ٨). ويربط بولس بين قصتي آدم وعيسى فيقول: "فإذا كنا بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة، لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جُعل الكثيرون خطاة، هكذا بإطاعة الواحد سيجُعل الكثيرون أبرارًا" (الإصحاح ٥ عدد ١٨ ـ ١٩).

ونستطيع أن نرى هذا المعنى منبثًا في أعمال الرسل، ونقرؤه في غاية الوضوح في رسالة بولس الأولى إلى تيموتاوس، "لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس: الإنسانُ يسوعُ المسيح الذي بذل نفسه فدية لأجل الجميع" (الإصحاح ٢ عدد ٥ ـ ٦).

وأكتفي بهذه النصوص من العهدين القديم والجديد.

ونتذاكر معًا المسئولية الفردية التي لا تنقل الخطيئة من أب إلى ولد، ولو كان الأب الأول.. ونقرأ معًا قول الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ

حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾.

هنا تبدو المسئولية الفردية في أوضح تجلياتها "كل إنسان" هنا تشمل الجميع بما فيهم الأب الأول.. وقد لقيه الرسول عليه الصلاة والسلام في السماء الأولى في ليلة المعراج، فهو نبي كريم في مقام كريم، لم ينله إلا بعد مغفرة من الله وقبول.

في التصوير التوراتي لم تأت المغفرة في القصة.

وفي التصوير الإنجيلي كان الفداء والغفران لآدم وأبنائه مع قصة عيسى عليه السلام، وانسحب على الماضي، وامتد إلى المستقبل.

وفي التصوير القرآني كانت المغفرة لاحقة مباشرة للخطأ خاتمةً صفحةً من حياة آدم، لتبدأ صحيفة جديدة بيضاء هي خلافته في الأرض.

ونقرأ معًا آياتٍ من القرآن الكريم:

جاء في سورة البقرة:

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧).

وجاء في سورة طه:

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾

وتأمل هنا لفظ الرب الدال على التربية والتوجيه.

ذكر الله عصيان آدم وغوايته وأتبعها بثلاث: الاجتباء والتوبة والهداية.

آدم هو الخليفة المجتبى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠). وهو الذي تاب الله عليه بعد الخطأ، وكيف يتوب عليه ويعاقبه ؟ وكيف يعاقبه وقد اجتباه ؟

وهو سبحانه الذي هداه، ولنقرأ معًا منهاج الهداية كما جاء في سورة البقرة:

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٣٨ ـ ٣٩).

والهبوط يحمل تغيّر المكان أكثر مما يحمل تغيّر المنزلة، ولنقرأ في هذا ـ كمثال ـ قول الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (هود: ٤٨).

فكان الهبوط بسلام، وفي آدم كان مع الهبوط هداية.. حتى في عالم الصخر نقرأ قول الله: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٧٤).

ونقرأ منهاج الهداية في سورة طه:

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه: ١٢٣ ـ ١٢٧).

وتحس العدل الإلهي في هذا كله، الحياة في الجنة كانت تجربة ثانية سبقتها تجربة نجاح أولى.. والله سبحانه علّم آدم الأسماء كلها فتعلمها، وأمره أن يقولها فقالها. وجاءت بعد هذا تجربة الاختيار وحرية الإرادة وأعمال الفكر. قل إنها بدء المسئولية، وكان الإغراء بالخلود وبالمُلْك الذي لا يبلى. وجاء إبليس من باب الطموح أن يحاول آدم الصعود إلى فوق ما أمره به ربه.. فكان الخطأ ثمرة الصراع بين صريح الوحي والطموح البشري. ولا تزال هذه المشكلة من أعقد ما يقابل الإنسان: الاختيار بين النظام الذي يمثله الوحي، والتطلع الذي تتصارع فيه النفوس.

وقد أخذ آدم من هذه التجربة "وقاية" ورأى أمامه التجربتين: العلم والاختيار. الطاعة وحرية الإرادة، ومهمته أن تكون حريته في إطار الطاعة. وهذه هي حقيقة الخلافة في الأرض وعمرانها بالصالحات، وكل فرد فيها مسئول عن عمله أمام ربه. وصدق الله العظيم: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم: ٩٥).

(٤)

مع العدل الإلهي

في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أحكام كثيرة:

أولاً: إن الله تعالى لا يؤاخذ الأطفال بكفر الآباء. ولا الأموات بأخطاء الأحياء أو عصيانهم، ما داموا غير متسببين له. ولا يؤاخذ أحدًا بجرم غيره. وذهب جماعة من الفقهاء ـ كما يذكر الفخر الرازي في تفسيره ـ إلى الامتناع عن ضرب الدية على العاقلة: أي أن يقوم رهط المتسبب في القتل الخطأ بالتعاون على دفع دية القتيل.

وأُجيب عنه بأن المخطئ ليس بمؤاخذٍ على ذلك الفعل، فكيف يصير غيه مؤاخذًا بسبب ذلك الفعل؟ بل ذلك تكليفٌ واقعٌ على سبيل الابتداء من الله تعالى. أ.هـ (٢٠: ١٧٢).

ولنا وقفة مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وفيها أيضًا يتجلى العدل الإلهي. فكيف يحاسب الله على رسالةٍ قومًا لم تبلغهم هذه الرسالة؟ وهل إعلان الرسالة يكفي لكي يدينَ الناس جميعًا، من بلَغتهم ومن لم تبلغهم؟

إنني اطمئن في هذا إلى شرح الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله، قال في كتابه: "الإسلام عقيدة وشريعة" ص ٢٩، ٣٠.

فبعد أن ذكر الحد الفاصل بين الإسلام والكفر وهو الإيمان بالله وتوحيده وتنزيهه وتفرده بالتصرف في الكون، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. قال: "من لم يؤمن بجانب من هذه الجوانب أو حلقة من هذه الحلقات لا يكون مسلمًا، ولا تجري عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم بعضهم وبعض، وليس معنى هذا أن من لم يؤمن بشيء من ذلك يكون